تجربة عز الدين القسام
مدرسة جامع الاستقلال
(١٩٢٢ ـ ١٩٣٥)

علي حسين خلف

تُنسب فترة وجود الشيخ عز الدين القسام في فلسطين، منذ وصوله الى حيفا، في صيف ١٩٢١، وحتى معركة استشهاده في خرابة الشيخ زيد، في خريف ١٩٣٥، الى أكثر أماكن عمله شهرة وشعبية ونعني بذلك جامع الاستقلال. ونظراً لطابع شخصية القسام التي تُقدِّم النموذج بنفسها، في القول والعمل، في الأفكار والممارسة، وبسبب خطبه وأقواله الداعية دوماً الى الجهاد، تحوّل جامع الاستقلال من مكان تقليدي للعبادة، الى مدرسة للوطنية، تربى فيها صف واسع من عمال السكك الحديدية وعمال البحر والحجّارة في حيفا، ومن فلاحي الشمال المقتلعين من أراضيهم والمقيمين عليها. وهنا، تجدر الاشارة الى نقطة جديدة تجاهلها كل التاريخ المكتوب عن القسام، في المقالات والدراسات والكتب والرسائل الجامعية. وهي أن أتباع القسام كانوا ينظرون اليه، منذ وصوله الى حيفا، باعتباره شيخهم ونموذجهم وأمين صندوقهم في حركتهم الجهادية. ولأنه لم يكن صاحب طريقة صوفية، وانما صاحب قضية سياسية: الثورة ضد الاستعمار، فان تبعية زملائه السوريين القادمين معه، رغم مظهرها الديني الكامل، كانت في الجوهر تبعية سياسية، خاصة وأنهم جميعاً، جاؤوا من مواقع الثوار في الشمال السوري، لا من زوايا الدراويش وحلقات الذكر. والوجه الآخر، لهذا العمل التنظيمي الجنيني، تجسد عند القسام في احتراف العمل السياسي السري، فاعطى وقته كله للتنظيم والثورة. ومرت سنوات على عز الدين القسام، ويومه يبدأ من الفجر ولا ينتهي الا في الساعات الأخيرة من الليل. يبدأ بعد صلاة الفجر فيعطي دروس محو الأمية والدروس الجهادية للعمال الأميين في مدرسة البرج الاسلامية أو في المسجد نفسه، ويصرف وقته، منذ الصباح حتى صلاة الظهر، في الاتصال الحي بالناس في مواقع عملهم وجلوسهم، ويعود ظهراً الى بيته ومعه، على الأغلب، بعض المجندين في المسجد لمناقشتهم، ويمضي فترة العصر في تقديم الدروس الجهادية، وفي المساء يصرف بعض الوقت في جبل الكرمل وهو يدرب الحلقات على استخدام السلاح، ويعود الى بيته ليقطع الوقت في حوار ساخن ومتشعب مع مناضلين